سُورَةُ فَاطِرٍ

النزول: مكية.

المقاصد:

١ ـ تقريرُ أركان العقيدة، وبيان أصولها، ورَدُّ شبه الكفار.

٢ ـ الحديث عن خلق الإنسان، والغاية من خَلْقِه ومصيره الذي ينتظره.

٣ ـ تسلية النبي ﷺ، وتسريةُ فؤاده ممَّا لحق به من أذى الكفار، وتكذيبهم.

٤ ـ بيان فضائل حملة القرآن الكريم ومراتبهم وثوابهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى
ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا
يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ
مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا
تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا
يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

التفسير:

١ ـ الحمد لله تعالى مبدع السموات والأرض، ومبديهما من غير أن يسبقهما مثالٌ، مع ما بَثَّ فيهما من مشاهد الجمال وآيات الجلال، وله الحمد على أَنْ جَعَلَ الملائكة الكرام البررة رسلاً مُوَكَّلين بمهامَّ، وجعلهم متفاوتين في الرُّتَبِ، فمنهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة، ومنهم مَنْ له أربعة أو أكثر، ومِنْ شأنه تعالى أن يزيد في الخلق ما يشاء.

٢ ـ يُبَيِّنُ الله تعالى أن ما يفتحه على عباده من رَحَمات، لا يقدر أحدٌ على إمساكها وحَبْسِها، وما يمسك منها فلا يقدر أحد على إرسالها، فخزائن

الرحمات بيده يجود بها على من يشاء من عباده، وهو العزيزُ الغالبُ فلا يمتنعُ عليه شيء، والحكيمُ في تصريفِهِ وتدبيرِه وتقديره.

٣ ـ يُذَكِّر الله الناس جميعاً بنِعَمِه عليهم وواجبٌ ذِكْرُها وشكرها، فلا خالق غيرُه ولا رازق سواه، لا ربَّ غيره ولا معبود سواه، فكيف تُصْرفون عن الحقِّ مع جلائه ووضوحه؟

٤ ـ وإن يكذبوك فيما جئت به فقد كُذِّبَت رسلٌ من قبلك، فتكذيبُهم لا مُسَوِّغ له، وشأنُهم شأنُ مَنْ سبقهم من المكذبين، وإلى الله مرجعُهم ومصيرُهم.

٥ ـ ينادي الله على الناس جميعاً يُذَكِّرهم بحقيقة وعده، وأنه كائن لا محالة، فآمِنوا به، واستعِدُّوا له، ولا تَغُرَّنَّكم زخارفُ الدنيا ومباهجُها، ولا يَغُرَّنَّكم الشيطانُ بوعوده الكاذبة، وأمانيه الباطلة، وتزيينه الخادع.

٦ ـ حقاً إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ؛ فعادُوه كما يعاديكم وذلك ببُغْضِه ومخالفته وعصيانه، والحذر من مكايده، واليقظة؛ لئلَّا تقعوا في مصايده، فلا غرض له ولا غاية إلا أن يستدرج مَنْ مَالَ إليه، وسار في فلكه، وتحزَّب له، وانجَرَّ لحبائله؛ ليكون من الماكثين في نارٍ تتأجَّجُ بأهلها، وتُسَعَّرُ بهم.

٧ ـ الذين كفروا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد، والذين صدَّقوا بالله ورسله وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله عظيمة، وأجرٌ كبيرٌ على صالحِ أعمالهم.

٨ ـ أفمَنْ زَيَّنَ له الشيطان عمله القبيح، فرآه حسناً كمَنْ هداه الله؟ فإنَّ الله تعالى يصرف مَنْ يشاء عن الحق ويوفِّقُ مَنْ يشاء له، فالهدايةُ لِمَنْ سلك طريقها، ورام أسبابها، ورَغِبَ فيها بصدقٍ وهِمَّةٍ، فلا تُهْلِكْ ـ أيها النبي ـ نفسك حزناً بعد حزن، وهمّاً إثر هَمٍّ، على مَن اختاروا طريق الضلال. والله تعالى عليمٌ بأحوالهم مُطَّلعٌ على ضمائرهم، ومجازيهم بما يستحقونه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في استفتاح السورة بحمد الله تعالى تنويهٌ وتنبيهٌ على فضائل الحمد، والتعبير بالحمد، بالمصدر أبلغُ وأعمُّ من قوله: احمدوا الله، بالأمر، واللام في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لام الجنس أو الاستغراق، فالحمد كله لله، والمحامد كلها له تعالى.

٢ ـ في الآية (٢) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ ما يفتح الله للنَّاس من رزق ومطر وصحَّة وعِلْم وغيرِ ذلك من النِّعَم، فلا أحدَ يقدر أن يمسك هذه الرحمة، وما يمسك منها فلا أحد يستطيع أن يرسلها بعده ﷻ.

٣ ـ لَفْتُ الأنظار إلى عالم الملائكة، هذا العالَم النوراني الذي جُبِلَ على طاعة الله، ومحبة أوليائه، وهم متفاضلون في الرُّتَب. والإيمان بهم ركنٌ، ومحبتُهم فَرْضٌ.

٤ ـ الزيادة في الخَلْقِ عامة وشاملة، منها على سبيل المثال: الخَلْقُ الَحَسَنُ، والوجه الحسن، والصوتُ الحَسَنُ.

٥ ـ الدعوة للتأمُّل والنظر فيما حواه هذا الكون الرحيب من آيات الجمال والجلال الدالة على كمال القدرة، فبقَدْرِ معرفة الإنسان وتَعَمُّقِه يزداد تَذَوُّقه لهذا الجمالِ الكونيِّ الباهر الذي يتجلَّى حتى يراه الجميع، ويدقُّ ويلطفُ، فلا يكتشفُه إلا العلماءُ المدقِّقون.

٦ ـ خزائنُ الرحمات بيد الذي يقول للشيء: كن، فيكون، يجودُ بها على مَنْ يشاءُ من عباده، «وعبَّر عن إرسالِها بالفتح إيذاناً بأنَّها أَنْفَسُ الخزائنِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون، وأعزُّها منالاً». (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود: ٤/ ٣٦٠).

٧ ـ تسلية النبي ﷺ وتعزيته بمَنْ سبقه من الأنبياء عليهم السلام، وما سَجَّلوه من صحائفَ مضيئةٍ بالصبرِ، والصمود في مواجهة تكذيب أقوامهم وإعراضهم.

٨ ـ في الآية (٦) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الشيطان كان ـ وما يزال ـ وسيبقى عدواً لبني آدم، يدعوهم إلى الضلال.

٩ ـ في الآية (٧) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

١٠ ـ التحذير من الاغترار بفتنة الدنيا وفتنة الشيطان، وبيان معاداته للإنسان، والدعوةُ لأخذِ الحذرِ من الوقوع في مكايده، والتسلُّحُ بالإيمان والعمل الصالح.

١١ ـ وجوب عداوة مَنْ عادانا في الدين، والشيطان هو العدو الأول.

١٢ ـ من أسباب الصدود والإعراض: الاغترارُ بالباطلِ وزخارفه، والانبهار بطلائه الزائف، والعُجب والغُرور، واعتلال النفس، وإهمال النظر.

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ فيه أبلغ الدلالة على حُبِّه لقومه، وحرصه على هدايتهم.

١٤ ـ في الآية (٨) إخبار مستقبليٌّ بأنَّ الله ﷻ يُضِلُّ مَنْ يشاء من عباده، ويهدي مَنْ يشاء. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ الله عليم بقبائح الضَّالين.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

٩ ـ ومن شواهد الوحدانية ودلائل العظمة: أنه تعالى الذي أرسل الرياح وصَرَّفها، لتُلَقِّحَ السحاب. فسُقْناه إلى بلدة قاحلة، فأنزلناه، وأحيينا به الأرض بعد جَدْبِها وقَحْطها، كذلك إحياء الله للأموات وبعثهم.

١٠ ـ مَنْ كان يريد العزَّة، ويطلبها، فليطلبها من الله ﷻ بطاعته وموالاته، فللَّه العزَّة جميعاً، ليس لغيره منها شيء، إليه تعالى يَرْقَى الكَلِمُ

الطيب، والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، والكلم الطيب يرقى بالعمل الصالح، فكلاهما ينهض بالآخر ويُكَمِّله. والذين يسعون ويحتالُون في تحصيل العزة الواهمة والزعامة الكاذبة بالسيئات من الأعمال، فيجعلونها مطيَّتَهم، ويجتهدون في إخفائها، مثل الماكر الذي يدبر الأمر في خفيةٍ، ويظهر خلاف ما يُضمره، شأنهم كالذي يغرس في أرضٍ جَدْبَة لا تُنْبِتُ زرعاً، كذلك أعمالهم وكيدهم إلى جَدْب، وسبيلهم إلى المذلة والانكسار.

١١ ـ والله خلقكم من تراب، منه خلق أباكم آدم، ومنه خَلْقُ الغذاء الذي هو عماد الإنسان، ثم من نطفة، ثم جعلكم أزواجاً ذكوراً وإناثاً، وما من أنثى تحمل وتضع، إلا بعِلْمِه تعالى ولُطْفه وتدبيره. وما يُعَمَّر من مُعَمَّرٍ بطول الأجل، وما ينقص من عُمْرِ مخلوقٍ بقِصَرِ أجله، إلا في كتاب قَدَّر الله تعالى فيه هذه الآجال. إنَّ كل ما مرَّ يسيرٌ على الله تعالى.

١٢ ـ وبَيَّنَ تعالى أنَّ البحرَين لا يستويان إن التقيا، فهذا عذبٌ فُرات، وهذا مِلْحٌ أُجاج، ولكلٍّ بحرٍ مكوناته وخصائصه ومنافعه، فلا يستويان في التركيب، ولا في الكثافة، ولا فيما يحويانه من كائناتٍ، إلى غير ذلك من تباين بينهما، تتجلَّى من خلاله عظمةُ الله تعالى، وكمال إنعامه على الناس، وإن اجتمعا في كثير من المنافع، فمنهما نستخرج اللحم الطَّرِيَّ، الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها، والحلية من اللؤلؤ والمرجان، كذلك من منافع عالم البحار والأنهار حَمْلُ السفن المحمَّلة بالخيرات والمنافع، ونَقْلُها من بلدٍ إلى بلد، ونَقْلُ الناس بقدرة الله تعالى ولطفه وتيسيره؛ كي تشكروا الله تعالى على هذه النِّعم.

١٣ ـ يُدخل الليل على النهار ويُدخل النهار في الليل، فتارة يطول النهار وتارة يقصر، وتارة يطول الليل وتارة يقصر، وفي هذا التنوع منافع كثيرة، والشمس والقمر يجريان بحساب دقيق وتقديرٍ محكم، فلا يتوقفان، ولا يعتريهما تغييرٌ، فأين تلك الآلهة المزعومة التي لا تملك شيئاً ولو يسيراً كالقِطْمير، وهو القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنَّواة؟

١٤ ـ إنْ تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، كيف وَهُنَّ أصنامٌ لا تسمع؟ ولو قُدِّر لها السماع، فأنَّى لها أن تجيب، ويوم القيامة يُنْطِقُ الله تلك المعبودات؛

لتشهد على مَنْ عبدها بالكفر، وتبرَّأ إلى الله تعالى من الشرك، ولا يخبرك بالأمر مخبرٌ مثل خبير عالم به، لأني خبير بما أخبرت به.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ إنَّ كل ما يأتينا من ماء عذب إلى الأرض ينشأ من إثارة هذه الرياح للبحار والمحيطات المالحة عندما تنزع عنها طبقة الهواء المتشبعة ببخارها والمتزنة بدرجة محددة من التشبع، فتأتي الرياح بهواء جاف متجدد لتثير البحار كي تطلق كماً آخر من بخار عذب يصنع السحاب. (الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾، مجلة الإعجاز العلمي: العدد ٢٨).

٢ ـ تقرير البعث بدليلٍ حسيٍّ مشاهَدٍ، وهو نزول المطر، وإنبات الأرض، ودورة الحياة.

٣ ـ تنبيهٌ وتوجيهٌ لذوي الأقدارِ والهِمَمِ إلى طريقِ العزةِ، وسبيل نَيْلِها.

٤ ـ في الآية (١٠) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٥ ـ في الآية (١٠) إخبار مستقبليٌّ عن مكر الفاسقين أنَّه زائل.

٦ ـ في الآية (١١) إخبار مستقبليٌّ عن عِلْمِ الله المطلق، فما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وما يُعَمَّر من مُعَمَّر، فيطول عمره، ولا ينقص من عمره إلا في كتاب عنده، وهو اللوح المحفوظ.

٧ ـ تحذير أهل المكر والخداع الذين يُضْمِرُون ما لا يُظْهرون، ويحتالون لارتكاب الخطايا.

٨ ـ الالتفات للمتكلم في قوله تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ وفيه تنبيه للمخاطب، واعتناء ولطف من الله تعالى بخلقه، وتعظيم لذاته سبحانه، والتعبير بالفعل المضارع ﴿فَتُثِيرُ﴾ لاستحضار تلك الصورة في الأذهان، وجَعْلِها ماثلة للعيان، دعوةً للتأمل والتفكر في هذه الآية العجيبة.

٩ ـ التعمير يكون بطولِ الأجَلِ ومَدِّ الأعوام؛ كما يكون بالبركة في العمر، والتوفيق لصالح الأعمال، وكذلك يكون نَقْصُ العمر بقِصَره؛ أو نزع البركة منه، وإنفاقه في اللهو والعبث، وتبديده في الكسل والفراغ.

١٠ ـ ينظر: مخطط جريان الشمس والقمر، كما في الملحق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ
حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ
﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير:

١٥ ـ ينادي الله عباده ممتنّاً عليهم: أنتم الفقراء إلى الله تعالى في دقائقِ أموركم وجليلها، وعظيمها وهيِّنها، وعسيرها ويسيرها، والله وحده هو الغني الحميد، النافع بغناه خَلْقَه، والجواد المنعم عليهم.

١٦ ـ ١٧ ـ لو شاء لاستبدل بكم غيركم، فهو الغني عنكم، لا يفتقر إليكم. وما ذلك على الله تعالى بممتنعٍ ولا عسيرٍ، فهو القادر على كل شيءٍ.

١٨ ـ ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثمَ نفس أخرى، ولا يستتبعُ ذنبٌ ذنباً غيره، وإن تَدْعُ نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها لم تحمل تلك المدعُوَّة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبة لها في النسب، فكيف بغيرها؟ إنما ينتفع بالنُّذُر ويمتثل لها الذين يخشون ربهم وإن لم يَرَوْه، ويخشونه في الخلوات بعيداً عن أعين الناس، وأقاموا الصلاة كما أمر الله. ومَنْ تَطَهَّر من أدران الشرك، وأدناس المعاصي، وارتقى لمكارم الأخلاق، فإنَّما تزكيته لنفسه تنفعه في دنياه، وتُنَجِّيه في أخراه. والله تعالى لا تنفعه طاعةُ

الطائعين، ولا تَضُرُّه معصيةُ العاصين، والمرجع والمآب إليه تعالى، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

١٩ ـ ٢٢ ـ هذا مَثَلٌ للكافر والمؤمن، أو للجاهل والعالم، أنَّهما لا يستويان أبداً، وهل يستوي مَنْ تعامى عن الحق وأعرض عنه، بمَنْ أبصر الحق واستضاء به؟ وهل تستوي ظلمات الكفر والضلال مع نور الإيمان والهدى؟ وهل يستوي الظلُّ الذي يستروحُ إليه الإنسان ويَقيلُ، ويتقِي به وَهَجَ الشمس، ولهيب الحرِّ، بالحَرورِ الذي لا يتحمَّلُه ولا يطيقه؟ ولا يستوي الأحياء ولا الأموات، ومَنْ شرح الله صدره للإسلام، ومَنْ أقام على الكفر والضلال. إن الله يُسمع مَنْ يشاء إسماعه، وما أنت بمُسْمِعِ الأموات، وأنَّى لهم أن يسمعوا وقد قُبِرُوا وهم أحياء في غَياهِبِ الشرك، ولُحودِ الضلالِ!!

٢٣ ـ ٢٤ ـ ما أنت ـ يا محمد ـ إلا نذيرٌ، وقد أرسلناك بالحق داعياً وهادياً ومبشِّراً بالجنة، ونذيراً من النار. وليس ثمة أُمةٌ إلا أَرْسَلْنا إليها مَنْ يُنذرها.

٢٥ ـ ٢٦ ـ وإن يُصِرُّوا على تكذيبك، فالتكذيبُ دَيْدَنُ أهل الكفر والضلال، ودأبهم، كما فَعَلَ مَنْ سبقهم مع ما جاءتهم به الرسل من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، وبالكتب المنزلة من عند الله، فانظر كيف كان جزاء الكافرين وعاقبتهم، أَخَذَهم أَخْذاً شديداً، وجعلهم عِبْرةً لكلِّ معتبرٍ.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ التكذيب دأب الكفار على مَرِّ الزمانِ، وعاقبته وخيمةٌ.

٢ ـ بلاغة اقتران الحميد بالغني، إذ ليس كل غني نافعاً بغناه، إلا إذا كان جواداً مُنْعِماً، وإذا جاد وأنعم حَمِدَه المنعَمُ عليهم. والله تعالى هو المُنْعِمُ على عباده بما لا يحصى، ولا يُعَدُّ.

٣ ـ جَمَعَ الظلمات، وأفرد النور؛ لأنَّ نور الحق وطريق الهدى واحد، أمَّا طرق الضلال وسبل الظلمات فإنَّها كثيرة متشعبة.

٤ ـ من رحمته تعالى وعدله أنه لا يؤاخِذُ أحداً بجريرةِ غيره، ولا يُحَمِّلُ أحداً وِزْرَ أحدٍ.

٥ ـ لا ينتفع بالإنذار، ويَرْعَوي له إلا أهل الخشية والطاعة مِمَّنْ أحيا الله قلوبهم، وأنار بصائرهم.

٦ ـ بيان مهمة النبي ﷺ وهي النِّذارة، ومن رحمته تعالى وعدله أنَّه لم تَخْلُ أُمةٌ من الأُمم السابقة من نذيرٍ.

٧ ـ دلَّت (ثم) على التراخي الزمني، فالله تعالى لم يُعَجِّلْ لهم العقوبة، بل أمهلهم حتى تُقامَ عليهم الحجة، ومَدَّ لهم حتى لا يبقى لهم عذر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ
بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ
ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ
ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير:

٢٧ ـ ٢٨ ـ أَلَمْ تنظر إلى السماء حين تنهمرُ بالأمطار، فتنبت الأرض بالنباتات والأشجار، وتَتَفَتَّقُ الثمار من أكمامها بألوانها البديعة، مَن الذي أبدع هذا الجمال، وصَبَغَ هذه الألوان؟ ألم تنظر للجبال وطرائقها الموشَّاة بألوانها البديعة، فمنها الأبيض ومنها الأحمر، باختلاف درجات اللون، ومنها الأسود الشديد السواد، وكذلك من الناس والدوابِّ والأنعام مختلفة ألوانهم؟ إنَّما يخشى اللهَ حقَّ خشيته العلماء العارفون به؛ المدقِّقون في آياته

الكونية، الوَقَّافون على بدائع المخلوقات وعجائب الكائنات. إنَّ الله لا يمتنع عليه شيء، وهو المُعِزُّ لأوليائه، الغفور لعباده.

٢٩ ـ ٣٠ ـ إنَّ الذين يواظبون على قراءة القرآن والعمل به ويحافظون على الصلاة بأوقاتها وفرائضها، وينفقون من أموالهم في وجوه الخير، يبتغون الخير في تجارتهم الرابحة مع الله؛ ليحقق لهم ما يبتغون، ويبلغهم ما يأملون، ويضاعف لهم، فهو تعالى غفور يغفر لهم الذنوب والتقصير، شكور يشكر سعيهم، فيثيبهم الثواب الجزيل على العمل اليسير.

٣١ ـ والذي أوحيناه إليك من الكتاب هو الحقُّ كما شهدت بذلك الآيات والدلائل، وهو المُصَدِّقُ لما بين يديه، من بشارات ونبوءات.

٣٢ ـ ثم أورَثْنا أعظم كتبنا لِـمَن اخترناه من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه بلغ حدَّ التقصير، خلط الصالحات بالسيئات، ومنهم مقتصدٌ يكتفِي بتركِ المحرمات، وفِعْل الواجبات، ومنهم سابق بالخيرات، وهم أصحابُ الهِمَم العالية، والنفوس المطمئنة، والأرواح الوثَّابة إلى كلِّ فضيلةٍ، فذلك هو الفضل الكبير، والشرف العظيم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ينظر: صور ألوان الجبال، كما في الملحق.

٢ ـ الدعوة إلى النظر والتأمُّل في جمال الكون، وما يحويه من إبداع عجيب ونسق فريد وتمازجٍ دقيق في الألوان، يشهد بعظمة الخالق جلَّ وعلا، وبديع صنعه.

٣ ـ في الآية (٢٨) إخبار مستقبلي عن حال العلماء في الخشية مع الله، فهم الذين يخشون الله، ويتَّقون عقابه بطاعته، واجتناب معصيته، فهم أعلم الناس به سبحانه وبصفاته وبشرعه، وقدرته على كلِّ شيء.

٤ ـ حصر خشية الله في العلماء؛ لأنَّ الخشية إنما تصدرُ عن عِلْم بجلال الله وعظمته، وكلَّما كانت المعرفة بالله أتمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانتً الخشية له أعظمَ.

٥ ـ الصلة بين العلم والخشية، فالعلمُ يُفْضي للخشية، وبقدرِ العلم تكون الخشية. وفي هذا المعنى يقول نبينا ﷺ: «... أَنَا أَتْقَاكُمْ لِلهِ وَأَعْلَمُكُمْ

بِحُدُودِ الله» (صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «أنا أعلمكم بالله»، وأن المعرفة فعل القلب برقم ٢٠).

٦ ـ الالتفات في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ من الغَيبة إلى التكلم تنبيهٌ، ولَفْتٌ لهذه الآية العجيبة.

٧ ـ أورث الله تعالى أعظم كتبه لِـمَن اصطفاه، واختاره لحَمْل هذه الأمانة، ونَيْلِ هذه المكانة، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ مسنداً لنون العظمة تعظيماً لشأن هذا الميراث، ولبيان أنَّ هذه النعمة هي بتوفيق الله تعالى خالصةً منه تعالى.

٨ ـ قَدَّم السِّرَّ على العلانية؛ لأنَّها هي الأصل لما فيها من سَتْرٍ على الفقير، وصيانة له، وبُعْدٍ عن الرياء، وإن جاز الإنفاق في العلن، بل قد يَحْسُنُ في بعض المواطن.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

التفسير:

٣٣ ـ ٣٥ ـ جنات عدن وارفة الظلال، يانعة الثمار، وافرة المياه. يدخلونها جميعاً، يُحَلَّون فيها بأساور من ذهب وأخرى من لؤلؤ، أو منهما معاً، ويَرْفُلون في حُلَلِ السندس والديباج، ويلهجون بالشكر والثناء على الله تعالى؛ لما أفاض عليهم من النعم، وأزاح من هموم وأحزان. إنَّ ربنا كثير المغفرة لِذنوب عباده يسترها ويمحوها، عظيم الشكر يضاعف الحسنات،

الذي أنزلنا وبَوَّأنا دار المقامة من رحمته بنا، وتَفَضُّله علينا، لا يَمَسُّنا فيها تعبٌ ولا مشقّةٌ ولا كَدٌّ؛ لأنَّها دارُ النَّعيم في ضيافةِ الكريمِ.

٣٦ ـ ٣٧ ـ والذين ماتوا على الكفر عقابُهم نار جهنم، لا يُحكم عليهم بالموت فيستريحون، ولا يُخَفَّف عنهم من عذابها الشديد فيستَرْوِحون. وهذا جزاءٌ عادلٌ لكل مَنْ أصرَّ على الكفر ومات عليه، وأعرض عن الحق وصدف عنه. ومن هول النيران يجأرون، ويستغيثون فيها ألماً وحسرة، سائلين ربهم أن يخرجهم منها؛ ليستدركوا ما فاتهم، ويصلحوا ما أفسدوه في حياتهم الأولى. وأنَّى لهم ذلك، وقد أمهلهم الله تعالى وأمدَّ لهم في العمر؟ فما استكانوا لربِّهم ولا رَجَعُوا إليه، بل كذَّبوا بالنذر، وأعرضوا عنها، فيقال لهم: ذوقوا العذاب الذي كنتم تستعجلونه استبعاداً وتَحَدِّياً، فلا ناصر لكم لظلمكم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قَدَّم الحِلْية؛ لأنَّها أحبُّ إلى النفس من الثياب، والشوق إليها أبلغُ.

٢ ـ الترغيب في الجنة، والترهيب من النار، ومن عذابها، وشقاء أهلها.

٣ ـ التأمل في مصير الكفار استحضارٌ لعظمة الله تعالى، وهيبةٌ وإجلالٌ لمقامه تعالى، وفيه تسليةٌ لأهل الإيمان.

٤ ـ يُجْمَعُ للكفارِ بين العذاب الحسيِّ والمعنويِّ، زيادةً في إيلامهم، وتنكيلاً بهم.

٥ ـ التعبير بالاسم الظاهر ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لبيان علة خِذْلانهم وهي البقاء على الظلم.

٦ ـ مجيء الفعل المضارع ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ على وزن يفتعلون؛ لأنَّ زيادة المبنى تدل على قوة المعنى، فصُراخهم شديد، وأفاد الفعل المضارع التجددَ والاستمرار، فصراخهم دائم لا ينقطع.

٧ ـ تكرار ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ لتأكيد النفي، ونَفْيِ كلِّ حالة على حِدَة لاستقلال كل واحدٍ، وفيه تعديد للنِّعم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي
جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ
وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي
مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ
ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن
زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ
لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾
ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا
سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا
كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾﴾

التفسير:

٣٨ ـ إنَّ الله تعالى عالمٌ بكل ما غاب واستتر في السموات والأرض، وهو العليم بما يدور في الصدور، وما تكنُّه القلوب.

٣٩ ـ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، هيَّأ لكم العيش فيها، وسَخَّر لكم ما يُعينكم، وذَلَّل لكم الصعاب، فمَنْ جحد هذه النِّعَمَ فعليه وحده إثم جحوده وعاقبته، ولا يزيده ذلك إلا مَقْتاً وبُعْداً وبُغْضاً من الله تعالى، ولا يزيده إلا الخسارة في الدارين.

٤٠ ـ يأمر الله نبيه ﷺ أن يسأل المشركين سؤال إنكار وتوبيخ وتقرير: هل أبصرتم شركاءكم الذين تدعونهم من دون الله، أَطْلِعُوني: أيَّ شيء خَلَقوا من خيرات الأرض، أم لهم نصيب وقَسْم في السموات؟ أم آتيناهم كتاباً فهم

على بصيرة ويقين منه؟ فإذا تبيَّن أنهم لم يخلقوا، ولم يملكوا ولا حجة لهم؛ فقد تقرر أن ما بين الظالمين من وعودٍ أمانيَّ كاذبةً، وأوهاماً باطلة.

٤١ ـ إنَّ الله تعالى بما له من العظمة والقدرة يمسك السموات والأرض، ولولا ذلك لزالتا، ولو زالتا ما استطاع أحدٌ سواه أن يقوم بهذا الأمر الجليل؟ فيا لَـحِلْمِه تعالى بعباده وإمهاله لهم. ولو شاء لَعَجَّل بهلاك كل مُذْنِبٍ ومُقَصِّر، ولكنه تعالى حليم بهم، يستر ذنوبهم، ويتوب عليهم.

٤٢ ـ وأقسموا بالله أغلظ الأيمان مؤكدين إن جاءهم نذير اهتدَوا بهديه، وكانوا أسبق للهداية، وأحرص عليها، وأمضى على خُطاها من اليهود والنصارى. فلما جاءهم النَّذير ما ازدادوا إلا بُعداً وإعراضاً، وكان أَولى بهم أن يشكروا الله على هذه المِنَّة، لكنهم بالغوا في النفور من هذه الدعوة، واستكبروا عنها، ومكروا بخبث ودهاء لإمامها ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

٤٣ ـ فعلوا ذلك استكباراً ومكراً، فماذا ينتظرون بعد ذلك؟ إلا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وسنةَ الله فيمَنْ سبقهم على طريق الجحود والإعراض، أن يعاقبهم بعذاب عاجلٍ مع ما ينتظرهم من العذاب الآجل. وتلك سُنَةٌ ثابتة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، ولا تنحرف عن مسارها، ولا تصيب إلا مَنْ يستحقُّها.

٤٤ ـ أقَعَدُوا ولم يسيروا في الأرض، فيُمْعِنُوا النظر في عاقبة الأُمم من قبلهم وآثارهم الغابرة وحضاراتهم الآفلةِ؟ كيف ازدهرت وارتقت، ثمَّ تلاشَتْ واضمحَلَّتْ، فما أغْنَتْ عنهم قوتهم وما كان الله ليمتنعَ عليه شيء، فهو تعالى العليم لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا تغيب عن علمه غائبة، القديرُ على إلحاق العذاب بمَنْ خالفه وعصاه.

٤٥ ـ ومِنْ لُطْفِه تعالى وحِلْمه ورحمته بعباده: أنه لا يُعَجِّلُ لهم العقوبة، بل يُمْهِلُهم ويؤخِّرهم؛ لعلَّهم يتوبون ويرجعون، ولو عَجَّل المؤاخذة، وأعقب كل ذنب بعقوبة عاجلة، وبادر العصاة بالنقمة والتنكيل، لما بقي على وجه الأرض من مخلوق، ولكن يُمْهِلُ ويُؤَخِّر إلى أجلٍ قدَّره، فإمَّا أن يجمع لهم بين عذاب الدنيا والآخرة، وإمَّا أن يَدَّخِرَ لهم العذاب؛ ليكون أشدَّ وأعظمَ نكايةً.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ من نِعَمِه تعالى على البشرية وتكريمه لهم: أن استخلفهم في الأرض، فعليهم القيام بواجبات هذه المهمة الجليلة، ومقتضيات هذه المسؤولية العظيمة.

٢ ـ في تكرار ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ لزيادة التقرير، ولبيان استقلال كل زيادة منفيةٍ على حدة.

٣ ـ في الآية (٤١) إخبار مستقبليٌّ عن محافظة الله تعالى على السموات والأرض من الزَّوال والخَلَلِ.

٤ ـ من شواهد العظمة ودلائل القدرةِ ولطائف النعمة: أنَّه تعالى المدبِّر لهذا الكون المصرِّف لأموره وَفْقَ تقديرٍ عجيب، وترتيب محكم.

٥ ـ من أسباب الصدود والإعراض ومظاهره: التخاذل عن نصرة الحق، والاستكبار في الأرض، والكيد لهذا الدين.

٦ ـ في الآية (٤٣) إخبار مستقبليٌّ عن عاقبة المستكبرين الماكرين، وهو العذاب الذي نزل بأمثالهم الذين سبقوهم. وفيها إخبار مستقبليٌّ آخر، وهو أنَّ طريقة الله لا تتبدَّل ولا تتحَوَّل، وستبقى كما هي، فلا يستطيع أحد أن يُبَدِّل، أو أن يحوِّل العذاب عن نفسه أو غيره.

٧ ـ الدعوة إلى السير والنظرِ في أحوال السابقين وآثارهم، سيرَ تأملٍ ونَظْرَة اعتبارٍ.